﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾ [الحجر: 57]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَجيءُ وفْدِ الملائكةِ، وتساؤلُ إبراهيمَ عن غرضِ مجيئِهم سِوى البِشارة

لمّا تحقَّق إبراهيمُ عليه السلام البشرى ورأى إتيانَهم مجتمِعين على غير الصّفةِ التي يأتي عليها الملَكُ للوحيِ، وكان على علم بأنَّه ما تنزَّلُ الملائكةُ إلا بالحقِّ، علمَ أنَّ لهم غرضًا سوى إيصالِ البشارةِ؛ لأنَّ الواحدَ منَ الملائكة كافٍ في البشارةِ، فكان ذلك سببًا لأنْ يسألَهم عن أمرِهم؛ ليزولَ وجَلُه كلُّه، فلذلك جاءت الآية ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[1].

أو يقال إنَّه علمَ أنَّ لهم غرضًا سوى البشارةِ لأجلِه أُرسِلوا بقرينة مخاطبتِه لهم بعنوان الرّسالة مع تصديره بالفاء المفيدةِ لترتّب أمرٍ على أمرٍ، ففيه دليلٌ على أنّ مقالتَهم المطويةَ كانت متضمّنةً لبيان أنّ مجيئَهم ليس لمجرّد البشارةِ بل لهم شأنٌ آخَرُ لأجله أُرسلوا فكأنه قال عليه السلام: إن لم يكن شأنُكم مجرّدَ البشارة ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطْبُكُمْ﴾: أصلُ (خطب): يدلُّ على الكلامِ بَيْنَ اثْنَيْن، يُقالُ: خاطَبَه يُخاطِبُهُ خِطابًا، والخُطبَةُ من ذلكَ[3]. ومنه الشَّأْنُ أوِ الأمْرُ، صَغُر أو عَظُم؛ وقيلَ: هو سَبَبُ الأمْر. يُقالُ: ما خَطْبُك؟ أي: ما أمرُكَ؟ وتقولُ: هذا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير. والخَطْبُ: الأمرُ الَّذي تَقَع فِيهِ المخاطَبة، والشَّأْنُ والحالُ؛ ومنه قَولُهُم: جَلَّ الخَطْبُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطب).

أي: عَظُم الأمرُ والشَّأنُ[1]. قيلَ: سُمِّيَ خَطْبًا لِأنَّهُ يَقْتَضي أنْ يُخاطِبَ المَرْءُ صاحِبَهُ بِالتَّساؤُلِ عنه، فأصْلُهُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى المَفْعولِ، أيْ مَخْطوبٌ فيه، وَجَمْعُهُ خُطوبٌ. والمقصودُ بالخَطْبِ في الآية: الشَّأْنُ المُهِمُّ مِن حالَةٍ أو حادِثَةٍ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إدراكُ إبراهيمَ أنّ وراءَ مجيءِ وفْدِ الملائكةِ الجماعيِّ أمرًا خطيرًا

قال إبراهيمُ للملائكة: فما شأنُكم الخطيرُ الذي أرسَلَكم اللّهُ به سِوى البِشارةِ؟ وكأنَّه عليه السلام فَهِمَ من مجرى حديثِهم في أثناء الحوارِ أن ليست هذه البُشرى هي المقصودةُ، بل لهم شأنٌ آخرُ لأجله أُرسِلوا؛ لأنَّهم كانوا عددًا والبشارةُ لا تحتاج إلى مثل هذا العدَد، ومن ثمَّ اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام، وأيضًا لو كانت البشارة هي المقصودةُ لابتدءوا بها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَوْسيطِ الفعلِ ﴿قَالَ﴾:

طيُّ الكلامِ اعتبارًا لِما هو مذكورٌ لا ما هو محذوفٌ

قولُه تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، توسيطُ ﴿قَالَ﴾ بين قوليه ليكون على طريق الاستئنافِ، إمّا للإيذان بعدم اتّصالِ ما بعده بما قبلَه؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ بينهما مقالةً مطويَّةً، وأنَّ الكلامَ تخطّاها لعدمِ ابتناءِ الكلام على المطويِّ بل على ما هو مذكور، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: 61 - 62]، فإنَّ قوله الأخيرَ ليس موصولاً بقوله الأول بل هو مبنيٌّ على قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤﴾ [الحجر: 34]، وإمّا أن يكون توسيط ﴿قَالَ﴾ لإظهار الاعتناءِ بمضمون ما بعدَهُ مِنْ

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خطب).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/290.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/86، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/36، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/34.

قولِه تعالى: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه علِمَ أنَّ مجيئَهم ليس لمجرَّد البشارةِ بل لهم شأنٌ آخَرُ خطيرٌ لأجله أُرسِلوا[1].

دَلالةُ الفاءِ الفصيحةِ ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾:

إنجاءُ المؤمنين وإهلاكُ الكافرين، أهمُّ منَ البشارةِ بالغلامِ العليمِ

الفاءُ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ[2]، يدلُّ عليه سياقُ الكلام، والمعنى: فإنْ كان مجيئُكم ليس لمجرَّد البشارة فما خطبُكم أيُّها المرسلون، وفي مجيء الفاء إشعارٌ بأنَّ إبراهيم كان يريدُ أن ينتقل بالكلام معهم إلى ما هو أهمُّ وأعظمُ شأنًا عندَه من أمرِ البشارة بالولد، فكأنَّه علمَ أنَّ تمامَ المقصود من مجيئهم ليس في البشارةِ.

سببُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾:

إشارةُ إبراهيمَ للملائكة، إلى أنَّ لهم خَطْبًا عظيمًا في مجيئهم

لمّا كان الاستفهامُ بـ(ما) على معنى العموم واقترن به لفظُ ﴿خَطۡبُكُمۡ﴾ أفاد أنَّ الاستفهامَ يستغرقُ أهمَّ شأنٍ من جميعِ شؤونِهم وأحوالِهم، وأنَّ هناكَ أمرًا خطيرًا أُرسِلوا من أجلِه، والسّؤالُ عنِ الخطبِ فيه عنفٌ، قاله إبراهيمُ عليه السلام لمّا أنكرَ حالَهم، فأراد أن يستعلمَ عنِ الأمرِ الذي أتوا لأجلِه، بطريقٍ يُعرّفهم به أنّه على علْمٍ بأنَّ لهم شأنًا عظيمًا في مجيئهم[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿خَطۡبُكُمۡ﴾:

الخَطبُ هو الشّأنُ الّذي لا يكونُ إلّا في الأمْرِ الخطيرِ

الخطبُ هو الشأنُ المهمُّ من حالةٍ أو حادثةٍ، ولا يَكادُ يُقالُ إلّا في الأمْرِ الشَّديدِ، فَأضافَهُ إلَيْهِمْ للإيذان بأنَّه علمَ أنّهم يحملونَه إلى القَوْمِ المُعَذَّبِينَ، والمعنى، ما أمرُكم وشأنكم الخطيرُ الذَّي لأَجْلِه أُرسلتم سَوى البشارةِ[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/82.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/366.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.

سِرُّ حذْفِ حرفِ النّداءِ في السّياقِ:

حذْفُ حرفِ النّداءِ لقُربِ المنادَى، وللإيجازِ في الكلامِ

قولُه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، حذفَ حرفَ النّداء (يا) لأنّ الكلامَ في سياق الإيجاز والاختصار، ولهذا جاء الكلامُ مَطويًّا، كما أنّه لمّا كان المنادى وهم الملائكةُ قريبين منَ المنادي لحضورِهم عند إبراهيمَ عليه السلام لم يكونوا بحاجةٍ إلى زيادَةِ تنبيهٍ بذكرِ (يا).

فائِدةُ النّداءِ بصيغةِ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾:

الإنباءُ عَنْ خَطَرِ خَطْبِ المُنادَى لـه، وتفخيمِ شأنِ المُنادى

لمّا كان المرادُ نداءَ المرسلين، وكان اللَّفظُ المقصودُ بالنّداء معرَّفًا بـ(ال) اقتضى مجيءَ الوصلة ﴿أَيُّهَا﴾ لتكون هي المنادَى لفظًا، وفائدةُ النّداء بهذه الصّيغة الإنباءُ عَنْ خَطَرِ خَطْبِ المُنادَى له وتفخيم شأنِ المنادَى، لِأنَّ مجيء المُنادَى مبهمًا غَيْرَ مَعْلوم يجعلُ كلَّ سامعٍ مُتَطَلِّعًا إلى المُنادَى، فَإذا خَصَّ واحِدًا كانَ في ذلك إنْباءُ الكُلِّ لِتَطَلُّعِهِمْ إلَيْهِ[1]، كما أنَّ مجيءَ المنادى مبهمًا ثمَّ متبوعًا بنعتٍ يوضِّحُه ويبيّنُه، فيه دلالةٌ على أهمّيَّته، ولمّا جاء النّعتُ أي ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ مشتقًّا، دلَّ على أنَّ تعظيمَهم بسبب رسالتِهم الّتي أُرسِلوا بها، وبسبب كونِهم مُرسَلين من عندِ اللّه.

سِرُّ نداءِ الملائكةِ بعنوانِ الرّسالةِ:

الإيذانُ بعلْمِ إبراهيم، أنَّ لهم شأنًا في رسالتِهم

قولُه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، ناداهم بعُنوانِ الرسالةِ بعد ما كان خطابُه السابقُ مجرَّدًا عن ذلك؛ للإيذانِ بأنَّه علمَ أنَّهم ملائكة، وأنَّ لهم شأنًا آخرَ أُرسِلوا لأجلِه، فأضاف الخطبَ إليهم بعنوانِ الرّسالة من حيث هم حملتُه إلى القوم المعذَّبين، أي ما هذا الخطبُ الذي تحملونه وإلى أيِّ أمَّةٍ أنتم مُرسَلون؟[2].

معنَى (ال) في لفْظِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾:

(ال) هنا عهديَّةٌ، فيحتملُ أن يكون الملائكةُ قد صرّحوا بأنَّهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/153.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/486، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

مُرسَلون من عندِ اللّه، فتكون (ال) للعهد الذِّكريّ المَطويِّ في الكلام، ويحتملُ أن يكون إبراهيمُ ﷺ قد علمَ بأنَّهم مُرسَلون من حالِهم، فتكون (ال) للعهدِ العلميِّ.

تـنـوّعُ (ال) بـين الـعـهـدِ الذِّكريّ والعهدِ العلميِّ، مفيدٌ في البيانِ

سِرُّ بناءِ لفْظِ ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ للمفعول:

خاطبَ إبراهيمُ الملائكةَ بصيغةِ المبنيّ للمفعولِ للإيذانِ بأنَه يعلمُ أنَّ اللّه تعالى أرسلَهم، ويعلمُ أنَّهم يفعلون ما يَأْمُرُهُمُ اللّه به، وللإشعارِ بأنَّه ﷺ أرادَ أن يعلمَ لِمَ أُرسلوا وإلى مَنْ أُرسِلوا.

تَوجيهُ النّظرِ إلى سببِ إرسالِ الملائكةِ، وإلى من أُرسِلوا

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَطْبُ والشَّأْنُ:

الخَطْبُ هو الأمرُ العظيمُ الذي يكثُر فيه التَّخاطبُ وتقعُ فيه المراجعةُ لأهمّيّتِه وعِظم أثرِه، فيكونُ حالًا أو حادثةً أي أمرًا طارئًا، ولا يقالُ لِلوصفِ خطبٌ، والشأنُ هو الحالُ والأمرُ الذي يتّفقُ ويَصلحُ، ولا يقالُ إلّا فيما يَعظمُ منَ الأحوالِ والأمورِ والأوصافِ[1]، فيقالُ للوصفِ العظيمِ شأنٌ، فالشَّأنُ أعمُّ منَ الخطبِ، ولهذا عبِّر في القرآنِ عنِ المعنى العامِّ الذي يشملُ الأوصافَ والأحوالَ والحوادثَ بالشّأنِ، للإخبارِ عن أنَّ اللّه تعالى شاهدٌ عليه، فقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61][2].

لفظُ الشّأنِ أعمُّ مـنَ الـخـطْـبِ، وكـلاهـما من ألـفـاظِ الـقـرآنِ الفصيحةِ

(1) الراغب، المفردات: (شأن).
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/177.